

اجتثاث النسق القبلي ومظاهر التغيرات البنيوية في المكون

الاجتماعي الجزائري الكولونيالي:

الحياة الاجتماعية من نمط العيش المشترك إلى الحياة المصطنعة.

د. نورالدين بولعراس
جامعة غرداية

ملخص: بالعودة إلى الحالة الجزائرية زمن الاستعمار، سوف نلاحظ أن هناك اهتمام متزايد بالنسق القبلي الجزائري من طرف هذا الأخير، الاستفهام عن دوافعه وأهدافه يقودنا إلى استنتاج أن القبيلة وقتئذ، كانت تشكل بنية معيارية بمفهوم الفكر السوسيولوجي في اتجاهه النسقي البنائي الوظيفي، أي بمعنى أنها كانت تملك آليات رقابة وتحكم في عدد من فروع النسق الاجتماعي، لذا كان الاستعمار منشغلا جدا بكل هذه الرابطة القبلية وتعطيل وظيفتها، باعتبارها خطرا يعرقل تقدمه وتوسعه، مستفيدا في ذلك من عدد من الدراسات الامبيريقية حول القبيلة في الجزائر.

الكلمات المفتاحية: القبيلة - الاجتثاث - الجزائر الكولونيالية - سياسة التحطيم والبناء الاستعمارية.

Abstract: By returning to the Algerian situation during colonial times, we will notice that there is increasing interest in the Algerian tribal echelon. The question of its motivations and objectives leads us to the conclusion that the tribe at the time constituted a normative structure in the concept of sociological thought in its structural orientation, And was governed by a number of branches of social order, so colonialism was very busy to resolve this tribal bond and disrupt its function, as a threat to the progress and expansion, taking advantage of a number of empirical studies on the tribe in Algeria.

Keywords: Tribe - Uprooting - Colonial Algeria - Colonial Crashing Policy and Construction.

تمهيد:

تحاول أوراق هذا المقال الوقوف على حجم التشوهات الكبيرة، التي عرفها المكون الاجتماعي الجزائري الكولونيالي، بفعل سياسة الاجتثاث المركب الكولونيالية التي مست بنية النسق القبلي ووظيفته المركبة كذلك، وبالعودة إلى الحالة الجزائرية زمن الاستعمار، سوف نلاحظ أن هناك اهتمام متزايد بالنسق القبلي الجزائري من قبل هذا الأخير، الاستفهام عن دوافعه وأهدافه يقودنا إلى استنتاج أن القبيلة وقتئذ، كانت تشكل بنية معيارية بمفهوم الفكر السوسيولوجي في اتجاهه النسقي البنائي الوظيفي، أي بمعنى أنها كانت تملك آليات رقابة وتحكم في عدد من فروع النسق الاجتماعي، لذا كان الاستعمار منشغلا جدا بكل هذه الرابطة القبلية وتعطيل وظيفتها، باعتبارها خطرا يعرقل تقدمه وتوسعه، مستفيدا في ذلك من عدد من الدراسات الامبيريقية حول القبيلة في الجزائر، التي ظهرت تحت عناوين ما يسمى بالمقاربة الكولونيالية ذات الطابع السوسيوأنثروبولوجي، والتي قادها عدد من الرواد أمثال: إ. ماسكراي ودوما وفابيير وهانوتو

ولوتورنو وغيرهم، حيث عمل الاستعمار على الاستفادة من تقارير تلك الدراسات ونتائجها، بغية علمنة أكبر لعملية الاجتثاث هذه، وتوفير سببية حظوظ نجاحها.

لذا سنتساءل بعد هذا التمهيد، عن ماهية التغيرات التي مست المستويات البنيوية في المكون الاجتماعي الجزائري الكولونيالي، التي أحدثتها فعل الاجتثاث المركب، جراء خلخلة التوازنات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في مجتمع القبيلة على الزمن الكولونيالي؟

وفي محاولة لجعل هذا الموضوع في حيز الممكن السوسيولوجي، واكتساب الثبات النظري والمنهجي حوله، فإننا نقترح له الخطة التالية:

- القبيلة، الاجتثاث وسياسة التحطيم والبناء الاستعمارية: مقارنة مفاهيمية
- في مبررات المقاربة السوسيولوجية للنسق القبلي في الجزائر
- تفكيك النسق القبلي ومظاهر التغيرات البنيوية في المكون الاجتماعي الجزائري الكولونيالي
- خاتمة

1- القبيلة، الاجتثاث وسياسة التحطيم والبناء الاستعمارية: مقارنة مفاهيمية إجرائية

سنحاول أن نبحث في هذا العنصر معاني ودلالات هذه المفاهيم، مهتمين أكثر بأبعادها الإجرائية طالما أن العناصر اللاحقة من هذا المقال، ستوقفنا على بعض من أبعادها النظرية.

تعد القبيلة كما عرّفها المجتمع الجزائري ما قبل الكولونيالي، مؤسسة اجتماعية وبنية معيارية أو قيمية، متحركة في عدد من البنى الفرعية كالاقتصاد: طبيعة الملكية وتقاليد الإنتاج، والثقافة والاجتماع: تنظيم حياة الأفراد ومعايير التواصل والانتماء والتراتب الاجتماعي والأمن القبلي وغيرها..

أما عن المفهوم الإجرائي للاجتثاث فهو يعتبر من بين أهم المفاهيم، التي طورها الباحث والسوسيولوجي الفرنسي "بيير بورديو" انطلاقا من الحقل السوسيوثقافي الجزائري، والتي سمحت لهذا الباحث أن يجري تعديلات تاريخية، في متن النظرية السوسيولوجية سيما في اتجاهه البنيوي الوظيفي، وتشهد على ذلك مفاهيم الهيمنة الذكورية والعنف الرمزي والرأسمال الرمزي والاجتثاث، هذا الأخير الذي كان يقصد به بورديو تلك السياسة الكولونيالية، التي أدت إلى تدمير مروع في الوجود الاجتماعي للإنسان الجزائري، في مستويات مجتمعية عدة كشبة العلاقات الاجتماعية، والحياة الاقتصادية والثقافية والتعليمية.

بينما يشير المدلول الإجرائي لمفهوم سياسة التحطيم والبناء الاستعمارية، إلى جملة من الممارسات التي كانت تستهدف المكون الاجتماعي الجزائري بمؤسساته وفاعليه، عبر منهجية إلحاق العطب الذاتي به وشله وظيفيا، وفرض قواعد لعبة جديدة فيه، تستجيب مباشرة للأيدولوجية الكولونيالية وأهدافها.

إذن الأمر يتعلق بتحطيم ما هو قائم وإعادة بناء ثانية، لكن بطريقة براغماتية، تخدم منطق الفعل الاستعماري، القائم على قاعدة التوسع والاستنزاف.

2- في مبررات المقاربة السوسولوجية للنسق القبلي في الجزائر:

قبل التعرض إلى هذا المستوى البنيوي من سياسة التحطيم والبناء الاستعمارية، علينا أن نقدم المبررات السوسولوجية، التي جعلتنا ننتخب القبيلة من بين عدد من المستويات الأخرى، كأمودج يصلح لأن يكون مثالا مجسدا لهذه السياسة.

في اعتقادنا أن هناك ثلاثة مبررات متضافرة، تجعلنا نختار موضوع القبيلة في هذا السياق هي كما يلي:

- **المعطى الواقعي:** وهو متغير سوسيو تاريخي، طالما أن القبيلة هي مكون اجتماعي، وبنية لا يمكن تجاهلها أو التغاضي عنها، في تاريخ المجتمعات العربية والمغربية التي تمثل مرحلة أساسية ومفصلية فيها.

- **المعطى النظري:** سواء في المغرب العربي أو في غيره، تمثل القبيلة درسا مبكرا في السوسولوجيا، فمن المقاربة الخلدونية إلى المساهمات المختلفة "ميشوبلير و" روبير مونطاني"، و"جاك بيرك" وغيرهم، كلها تمثل إرثا نظريا حول هذا المكون الاجتماعي، التي تكاد تتفق كثير من الأدبيات المهتمة به، على أنه نسق اجتماعي له قيمة وقواعده، مع وجود فوارق وتباين نسبي كلما تحولنا من نسق لآخر، حتى وإن تشابحت الجغرافيا الطبيعية والثقافية لهذه الأنساق.

- **المعطى المنهجي:** على الرغم من حجم التحولات التي مست البنية القبلية وهياكلها في مجتمعات عدة، إلا أن هذا المكون وإن كان قد زال واندثر كبنية، فإنه لازال فاعلا كعنصر ثقافي في الأفعال الاجتماعية الفردية والجماعية في كثير من الأحيان، بل أحيانا يلعب أدواره كمتغير مستقل مفسرا لكثير من الظواهر، خصوصا عندما تضعف القواعد القانونية المدنية المؤسساتية، وإلا كيف يمكن أن نفسر مثلا الظاهرة الانتخابية في مجتمعنا الجزائري؟.

فحسب ملاحظتنا أن السلوك الانتخابي مثلا في مجتمعنا، كثيرا ما تتحكم به متغيرات سوسيوثقافية عند كثير من الفئات، ففي مناسبة انتخابية معينة وجدنا أحد المنتخبين (شيخ) يقول: سأنتخب هذه القائمة الحزبية حتى وإن كان المترشحين فيها قردة!، ثم ألم تر بأن المترشحين لبعض المناسبات الانتخابية، يفوزون بأغلبية أصوات الناخبين في مناطق انتماءهم الاجتماعية والجغرافية.

عموما إذا هناك سلوكيات وأفعال تؤشر إلى العودة للقبيلة والاحتماء بها، يعود سببه لضعف القانون، باعتباره الضامن للأمن الاجتماعي والمهني للفرد والجماعة، هذا ما يجعلنا نقول أن فهم كيفية اشتغال النسق القبلي، ومسألة التراث النظري حوله، بغية مقارنة كثير من الظواهر في مجتمعنا، هي مسألة وضرورة منهجية تفرضها إشكالات الراهن.

3- تفكيك النسق القبلي ومظاهر التغيرات البنيوية في المكون الاجتماعي الجزائري الكولونيالي:

بالعودة إلى الحالة الجزائرية الكولونيالية، سوف نجد أن هناك اهتمام ملفت من طرف الاستعمار بالنسق القبلي الجزائري، ينبغي أن نستفهم عن دوافعه وأهدافه؟.

الحقيقة التي تؤكدتها كثير من الدراسات، أن البحوث الإمبريقية التي اهتمت بهذا النسق، غلب عليها الطابع التصفوي أو التنقوي، أي بمعنى ليست كل القبائل كانت محل بحث كولونيالي، بل الاهتمام كان منصبا على البعض منها، وهذا بغية فهم طبيعة البنية القبلية من الداخل، من أجل التحضير لاحقا إما لتفكيكها أو تدجينها، ولعل أن البيولوجيا الكولونيالية حول موضوع القبيلة في الجزائر، تعطينا كثير من هذه المؤشرات، المتعلقة بروادها وانتماءهم الأيديولوجية وأهدافهم.

إذ تعتبر كتابات إميل ماسكيراى (E.Masqueray):

-Formation des cites chez les populations sédentaires.

وكتابات "دوماوفاير" (Dumas et Fabert):

-La grand Kabylie : études historique.

وهانوتولوتورنو (Hanotaux et Letourneau): - منطقة القبائل الكبرى، تر: مزيان آيت الحاج.
وكتابات أ. كوناى (A.canaille): - الشعابنة. وغيرها من الكتابات التي تعكس واقع الأبحاث الكولونيلية وافترضاها.

إلى جانب هذا الإرث هناك كتابات موازية لبعض الباحثين، الذين حاولوا نقل وصف موضوعي لبنية النسق القبلي الجزائري وكيفية اشتغاله، و الأهم من كل هذا هو تصوير حجم التشوهات الكبيرة، التي عرفها بفعل سياسة التفكيك الكولونيلية.

يعتبر السوسولوجي الفرنسي بيير بورديو (P. Bourdieu)، واحدا من الذين عالجوا كثير من قضايا المجتمع الجزائري، لكن على نحو مختلف عن المعالجات التي كرستها كتابات المقاربة الكولونيلية، وباعتباره معاصرا لجزء من فترة سياسة التخطيم والبناء الاستعمارية، فقد كان بالنسبة إليه المجتمع الجزائري حقلا معرفيا بامتياز، سمح له في بعض الأحيان أن يستلهم منه مفاهيمه الأساسية، ويعدل بواسطتها كثير من الموروث السوسولوجي الكلاسيكي، سيما البنيوي منه على وجه الخصوص، وتشهد على ذلك مفاهيم: الرأسمال الرمزي الهيمنة الذكورية وغيرها، التي هي إضافة نوعية للمتن النظري والحقل المعرفي السوسولوجي، كما أشرنا في مدخلنا المفاهيمي حول هذا الموضوع.

لقد حاول بورديو ممارسة دوره ووظيفته كسوسولوجي، باحثا عن أي من المفاهيم تكون أكثر خصوبة واستكشافا، لتجريد واقع التدمير الواسع الذي طال العلاقات الاجتماعية التقليدية الجزائرية، التي تستوعبها القبيلة كبنية منتجة لها ومحافطة عليها، فوضع مع زميله عبد المالك صياد مؤلفهما "الاجتثاث": أزمة الفلاحة التقليدية في الجزائر. الذي ضمنها تشريحا لبعض مناحي الحياة الاجتماعية التي تخص حياة الفرد وانتماءاته، متخذين من موضوع الفلاح الجزائري عينة، معبرة عن إجراءات التدمير الكولونيلية من أجل البناء!، وهي إجراءات بحسب بورديو وصياد لم تفض سوى إلى مزيد من تهميش المزارعين الريفيين، وتكريس اغترابهم الاجتماعي.

ابتكر بورديو وزميله صياد مفهوم "الاجتثاث le déracinement"، للتعبير عن هذه الوضعية، إذ يقصدان به إقتلاع... لنمط فضاء الحياة التقليدية وهياكلها، عن طريق كسر وتدمير روابط الألفة التي توحد الأفراد ببيتهم" (1)، كما أنه يعني: "كسر للإيقاعات الزمنية والمكانية التي كانت تمثل جوهر الوجود الاجتماعي (للأهالي)" (2).

الأمر إذن يتعلق بتدمير علاقات النسب الرمزي والمادي بمفهومه الخلدوني الواسع، وتعويض المنظومة القيمية والعلائقية في النسق القبلي، بشبكة ومنظومة علائقية قوامها الفضاء الاجتماعي وهياكله المصطنعة، بحيث لم يعد كثير من

الأفراد الذين حولهم الاجتثاث إلى هذا الفضاء، بمقدورهم المحافظة على علاقات القرابة والتضامن مع العشيرة، بل كرس فيهم هذا الفضاء مزيدا من الفردانية والأنانية وحب الذات، وبدأت الارتدادات الاجتماعية للاجتثاث تعطي نتائجها السلبية، فالفضاءات الكولونيالية المصطنعة **كالمقهى** مثلا، أخذت تؤشر لتمرد غير معنن للفرد على القبيلة، وهذا بعد أن دخل هذا الفرد في مرحلة نسيان بالتقادم لعالمه الأول وقيمه التي فرضها الاجتثاث، حيث لوحظ ميل في التواصل ورغبة في مناقشة مشاكل الفرد مع هذه الفضاءات، والنتيجة كما خطط لها الاستعمار، هو العمل على ديمومة انحلال الرابطة القبلية، وتعطيل وظيفتها حتى التخلص النهائي منها، باعتبارها بؤرة خطر تعرقل تقدمه وتوسعه.

لم يكن الاجتثاث بملاحه السوسيوثقافية كما رأينا موضوعا عند بورديو وصياد فقط، بل أن هناك من الباحثين السوسيوولوجيين، من عكست مناقشاتهم لسياسة التحطيم والبناء الكولونيالية، في بعدها العلائقي الاجتماعي جزء من ملامح هذا الاجتثاث السوسيوثقافي، إذ تعتبر أبحاث الأستاذ الجزائري في علم الاجتماع "عدي الهواري" واحدة منها، بحيث يطلعنا في مؤلفه: الاستعمار الفرنسي في الجزائر - سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي - على جوانب مهمة من تلك السياسة، التي غيرت كثيرا من بنية المكون الاجتماعي الجزائري ووظيفته، "فالدوار والقوري (Gourbi)" على سبيل المثال، هي من الكيانات التي ارتبطت بالاستعمار وممارساته، والتي لم يكن لها وجود في المكون الاجتماعي الجزائري ما قبل الكولونيالي: "لم يوجد الدوار ولم يكن له أي مكان في بنية العرش - الفرقة - العيلة، فضلا عن ذلك لم يذكره لا ابن خلدون، ولا غيره من المفكرين المغاربة حتى نعطيه معنى اجتماعيا ما، يبدأ الدوار فعلا من صنع الاستعمار، وهو مخصص لتجميع العناصر المشتتة من القبائل المفككة، لمنعها من الاستمرار في النشاطات الرعوية، غير المتوافقة مع توسيع أراضي الاستعمار" (3) أما "...الجوري هذا المسكن المصنوع من القصب والقش، فهو نتيجة مباشرة لتحويل الفرق نصف البدوية إلى الإقامة الحضرية، وذلك في شروط اقتصادية لا تتسجم مع الحياة الاجتماعية الحضرية، ينجم الانتقال من الخيمة إلى الجوري، عن تحويل نصف البدو بالقوة إلى الإقامة الحضرية" (4).

مع أنه تجدر الإشارة أن المحولين من الجزائريين عن بناهم التقليدية، بعد تدميرها وفك روابطها إلى حياة جديدة مصطنعة، لا يعني أنهم قد سمح لهم بالاندماج في الحياة الحضرية واكتساب تقاليدها المدنية، "فالقوري" كإقامة هو انتكاسة في حياة نصف البدوي، الذي عهد حياة الخيمة المرفهة إلى حد كبير. هذه الممارسات إذن تدخل كلها ضمن سياسة تدجين البدو المشاغبين المشار إليهم آنفا.

المبدأ الاستعماري القائم على عقيدة تملك الآخر، والسيطرة عليه بالقوة المعززة بالمراقبة والعزل، سيجد تجسده في الوجه الآخر للاجتثاث، الذي تم على مستوى البنية الاقتصادية، إنه اجتثاث بلامح سوسيواقتصادية، يقول بورديو (P.Bourdieu): "لقد ساهمت السياسة الزراعية (le politique Agraire)، التي تميل إلى تحويل الممتلكات غير المقسمة إلى الملكية الفردية، إلى حد كبير في تفكيك الوحدات الاجتماعية التقليدية (les unités

(sociales traditionnelles)، عن طريق كسر التوازن الاقتصادي التي شكلت الملكية القبلية أو العشائرية به أفضل حماية" (5).

هذه السياسة أفضت إلى بروز عدد من المشكلات الاجتماعية، أدت إلى ما يسميه بورديو بظاهرة "فلاحون بدون أرض" وبـ "بروليتاريا المدن". " إحصاء عام 1931 أظهر أن هناك تراجع عام لسكانة الريف في الجزائر، مقابل تدفق هائل ومتزايد من الأوروبيين نحو المدن الجزائرية ... بحيث لم تمثل ساكنة الريف سوى 30% خلال سنة 1931 ... " (6).

فإخلاء الريف الجزائري من ساكنته هي سياسة استعمارية، هدفها خلخلة التوازنات الاجتماعية والاقتصادية والديمقراطية للمجتمع.

بل أن هناك بعض الأبحاث تشرح خصوصية الاجتثاث الاقتصادي، لتؤكد أن: " الكولونيات في الجزائر أساسا كانت زراعية، وهذا يعني أنه لمدة قرن من الزمن، كانت الأرض بالنسبة للدولة الكولونياتية، كما بالنسبة للفلاح موضوعا (la terre a été objet)، هذا هو الهاجس الزراعي كما يقول جاك بيرك" (7). وعلى العموم تتميز الحملة الكولونياتية على الجزائر بثلاثة خصائص " شساعة المساحة الزراعية؛ تناوب محاصيل زراعية (محددة) على مساحة تقدر بـ 90% من الأراضي المنبسطة والشاسعة؛ (تطوير ثلاثة محاصيل: القمح، الكروم، الحمضيات)، على حساب الإنتاج الغذائي؛ وأخيرا إنشاء مدن كولونياتية للمستوطنين فقط" (8).

كانت هذه اللحظات السوسيو تاريخية الكبرى للحملة الكولونياتية على الجزائر بخصائصها الثلاثة، والتي عكست في النهاية عاملين يباعد بينهما منطق الهياكل المزدوجة. " التوتر الطويل ذو الهياكل المزدوجة جدا: فمن ناحية الهياكل الكولونياتية المتألفة من المزارع الشاسعة الممكنة، المعتمدة على أفضل الأراضي المدججة في بيئة اقتصاد السوق، وهناك قطاع جزائري المتألف من الأراضي الأكثر فقرا والمجزئة" (9).

إن العقيدة الاستعمارية التي تنظر إلى الطبيعة بوصفها مستودعا للثروات، وموضوعا للاستهلاك النهم، أفضى في النهاية إلى استنزافها وتخريبها فتناقصت مواردها، لأن مرتكزات وفلسفة الرأسمالية في دول المركز، اختلفت تماما عما هو عليه الأمر في دول الهامش، إذ تعتبر هذه الأخيرة مركز تمويل وتدوير للصناعة في دول المركز، نتيجة لذلك هيمنت في دول الهامش اقتصاديات تجارية بدل اقتصاديات صناعية، فالملاحظ حسب عدي الهواري أن الرأسمال التجاري، هو السمة المسيطرة على اقتصاديات الدول المستعمرة سيما الجزائر فهو: " يسيطر على سلركة العمل من الخارج، إنه يجمدها ملغيا بذلك أية إمكانية لأن تتحول وتتطور، فسلركة العمل الخاضعة للرأسمال التجاري، لا تملك أية إمكانية لتوسيع

قاعدتها التقنية، وهي محكمة بأن تعيد إنتاج نفسها على نفس المنوال، محدثة فائض إنتاج لا يفيدھا مطلقا، بمعنى أنها لا تملك إمكانية تمويل نفسها" (10).

فستان بين رأسمال صناعي قائم على الإنتاج والاستثمار، ورأسمال تجاري قائم على ترويج بضائع، هذا الشكل من ثقافة الإنتاج الكولونيالي هو الآخر، قد أفضى وكما يقول بورديو (P.Bourdieu) إلى تضييع مبادئ الثقافة الزراعية التقليدية عند الفلاح الجزائري، والمس بكثير من التقاليد الإنتاجية لديه. فتتويع المنتج وإتباع نظام إراحة الأرض، هي تقاليد زراعية عند الفلاح الجزائري، في نمط الإنتاج ما قبل الكولونيالي: "تحت كثير من الضغوطات، اضطر الفلاح الجزائري إلى التخلي عن كثير من تقاليد الزراعة (كنظام إراحة الأرض)، مع تكثيف الاستغلال غير المنتج لها" (11). فالقوانين العقارية الكولونيالية التي واجهها الفلاح الجزائري، والتي انتهت بنزع ملكيته وتحويله إلى أجير فيها في أحسن الأحوال، قد غيرت وجهتها الزراعية في غير صالح الحاجة الغذائية للجزائريين، فعوضت الغلال الأساسية (كالقمح مثلا)، غلال دخيلة على الثقافة الزراعية والغذائية للجزائريين (كالكرمة والحمضيات مثلا)، ومع ما تبقى من الملكيات المجزئة وغير الصالحة للفلاح الجزائري، قد عمل الاستعمار على إدامة بدائية وسائل إنتاج هذه الملكيات، في مقابل التحديث والمكثنة التي عرفها القطاع الفلاحي الكولونيالي، هذه الوضعية هي الأخرى كانت سببا في ظهور ما يسمى باقتصاد الاكتفاء الذاتي، أو اقتصاد الكفاف، يقول عدي الهواري: "النشاط الاقتصادي لا يزال موجها للكفاف بدلا من الإنتاجية" (12).

بينما يطلعنا الباحث الجزائري "عبد اللطيف بن أشنهو" في مؤلفه: "تكون التخلف في الجزائر"، على كثير من التفاصيل التي رافقت تفكيك البنية الاقتصادية، حيث حظّر الاستعمار لهذه العملية ترسانة من القوانين، التي من شأنها أن تقضي على ظاهرة مشاعية الأرض، وعلى ثقافة الإنتاج ما قبل الكولونيالي فيها، إذ يقول: "توزيع القبائل في دوائر والتجميع الاعتباري لسكان ينتمون إلى قبائل مختلفة داخل دوار واحد، سبب انحلال القاعدة العقارية السابقة، وسمح للجماعات الخاصة للإدارة، بإمكانية المتاجرة بالأرض لصالح الدولة أو الأفراد" (13).

فمن قرار مجلس الشيوخ (سنة 1870) إلى مرسوم سنة 1880 وغيرها: وضعت: "عمليات البيع والشراء الحرة ملكية 165.000 هـ بين أيدي المعمرين، وهكذا امتلك المعمرين أكثر من مليون هكتار، وضاعت القاعدة العقارية للجماعات..." (14).

إجراء الفرنسة العقارية بقانون القوة هذا، سوف يستكمل بإفقار مستمر للمتشبثين من الفلاحين الجزائريين بأراضيهم على وضعياتهم الجديدة، يقول أحد هؤلاء: " تعرضنا للقمع بشتى السبل: كنا نملك الأراضي فاشتروها منا بالقوة، وكنا مضطرين لأن ننتظر 4 أو 5 سنوات كي نقبض ثمنها الذي نصرفه بسرعة، افترستنا تكاليف العدالة، وأفلسنا مأمور الأحرار من جراء المحاضر ... شيئا فشيئا اضطررنا لبيع القليل مما نملكه من الماشية، وعدنا لا نستطيع استثمار الأرض، لأن قطعاننا قلت ولكوننا محرومين من عائدات أراضيها، وجب علينا أن نبيع قسما أكبر من المواشي كل سنة، إلى أن افتقدناها، وفي كل الأحوال ليس نحن من استنبط قانون الملكية ولا قرارات العدالة"⁽¹⁵⁾.

الاجتثاث الذي ألحق ضررا عميقا في بنية المجتمع الاقتصادية، وقطيعه وعدم توازن في نمط الحياة التقليدية، وتغييرا في التركيبة الديمغرافية في المجتمع، قد طال الإرث والموروث الحرفي والصناعي للمجتمع أيضا، وهذا هو الزمن السوسيو تاريخي الثاني لهذا المكون الاقتصادي، ونعني به زمن تفكيك الاقتصاد المنزلي الجزائري، بعد زمن الازدهار والنمو كما روجت لذلك كثير من الكتابات، يقول بن أشنهو: " انتظمت مختلف الصناعات التقليدية في المدن على شكل تنظيمات مهنية، فكان هناك هناك تنظيمات للدباغين، للإسكافيين لصانعي البرادع، لحائك الصوف، والقطن والحريز، للمطرزين، لصانعي البراميل، للبخارين، للحدادين، لصانعي الأسلحة، وصانعي المجوهرات ... ويشبه هذا التنظيم المهني نظيره في أوروبا القرون الوسطى: حيث يملك المعلم الحرفي وسائل الإنتاج، ويدير فعليا العمل فيها، ويعلم المتدئين أصول الحرفة ..."⁽¹⁶⁾

اجتثت الحرفة وفككت إذن عندما قضى الاستعمار على مصادر تمويلها، فهناك ما يشكل 85% من هذه الحرف والصناعات، مواد تمويلها الأولية مرتبطة بالأرض وبتربية المواشي، وبتفكيكها فككت كذلك باقي الأنساق التي تمولها، هذا ناهيك عن محاصرتها ضريبيا.

نستطيع أن نقول وكحوصلة عامة لهذا الموضوع، أن مسألة الاجتثاث كمفهوم قد أخذ طابعا مركبا في الحالة الجزائرية، فالاستعمار كمجتمع سياسي بمفهوم أنتونيو غرامشي (Antonio Gramsci)، وحتى يضمن وظيفة الهيمنة والسيطرة، قد استكمل كل معادلة الاجتثاث بأبعادها المختلفة، فالحياة المصطنعة، والجهل المؤسس، والنكسة الحضارية المؤسسة، هي نتائج منطقية لاجتثاث مركب مس ثلاث مستويات بنوية، كانت في الزمن ما قبل الكولونيالي تحقق للمجتمع الجزائري قدرا عاليا من التوازن العضوي والوظيفي، هذه المستويات هي شبكة العلاقات الاجتماعية التقليدية، ثم المنظومة التعليمية التقليدية، وأخيرا البنية الاقتصادية بموروثها الفلاحي والحرفي، بالحصلة لقد كان الإنسان الجزائري ووجوده الاجتماعي بالجملة موضع تدمير مروع لهذه السياسة.

الهوامش:

- (1) Pierre Bourdieu, Abdelmalek sayad, le déracinement: la crise de L'agriculture traditionnelle en Algérie, éd de minuit, Paris, 1964, P 152.
- (2) Ibid, P21.
- (3) عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830 - 1960)، تر: جوزف عبد الله، ط1، دار الحدائق، لبنان، 1983، ص54.
- (4) نفس المرجع، ص54.
- (5) Pierre Bourdieu, Abdelmaleksayad, op-cit, P16.
- (6) Larnaud Marcel, La colonisation rural en Algerie in: Annales de Géographie 1932, t-41, N°233, P538.
- (7) Marc côté, companes Algérienne: un héritage coloniale difficile à assumer in: Méditerranée, troisième série, t-55, 1933, Hommage en mémoire d'H, insard, P41.
- (8) Ibid, P42.
- (9) Ibid , P 41.
- (10) عدي الهواري، مرجع سابق، ص144.
- (11) Pierre Bourdieu, Abdelmaleksayad, op-cit, P19.
- (12) عدي الهواري، مرجع سابق، ص144.
- (13) عبد اللطيف بن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر: محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر بين عامي 1830 - 1962، تر: مجموعة من الأساتذة، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، بدون سنة، ص60.
- (14) نفس المرجع، ص81.
- (15) نفس المرجع ، ص83.
- (16) نفس المرجع، ص ص 40، 41.